

Égypte/Monde arabe

21 | 2020
Women and Islam: Beyond Activism

الحوزة العلمية وتجربة النساء الإسلاميات الشيعيات في المجال العام العراقي

The Hawza *and the Experience of Shi'a Muslim Women in the Iraqi Public Sphere*

La hawza *et l'expérience des femmes musulmanes chiites dans la sphère publique irakienne*

Ilham Makki Hammadi



Édition électronique
URL : https://journals.openedition.org/ema/11597
DOI : 10.4000/ema.11597
ISSN : 2090-7273

Éditeur
CEDEJ - Centre d'études et de documentation économiques juridiques et sociales

Édition imprimée
Date de publication : 1 août 2020
Pagination : 122-143
ISBN : 978-2-900956-21-2
ISSN : 1110-5097

Référence électronique
Ilham Makki Hammadi, « الحوزة العلمية وتجربة النساء الإسلاميات الشيعيات في المجال العام العراقي », *Égypte/Monde arabe* [En ligne], 21 | 2020, mis en ligne le 02 janvier 2023, consulté le 19 août 2022. URL : http://journals.openedition.org/ema/11597 ; DOI : https://doi.org/10.4000/ema.11597

الهام مكي حمادي

الحوزة العلمية وتجربة النساء الإسلاميات الشيعيات في المجال العام العراقي

مُلخص

تركز هذه المقالة على تجربة دراسة النساء الإسلاميات الشيعيات داخل مدارس الحوزة العلمية في مدينتي بغداد والنجف للفترة من ٢٠١٥-٢٠١٦، ومعرفة مدى تأثيرها على حيواتهنَّ، وكيف أسهمت في إعادة تشكيل علاقات النوع «الجندر»، التي تأطر أدوار النساء ضمن حدود المجال الخاص والمجال العام، وكيف ساعدت على خلق مسارات واحتمالات جديدة في حيوات النساء ضمن المجال العام، عن طريق تحليل البنى والسياقات السياسية والثقافية والاقتصادية، التاريخية منها والراهنة، وتجاوز الطروحات النظرية السطحية، بالنظر إلى النساء المسلمات بأنهنَّ ضحايا وخاضعات سلبيات. يركز المقال على السياق السياسي كأحد اهم أسباب خروج النساء الإسلاميات الشيعيات الى المجال العام، كما يحاول المقال القاء الضوء على موقف القوى السياسية من مشاركة ووجود النساء في المجال العام، التي قامت بتهميشهن او /واقصائهنّ تارة، او تشجيع مشاركتهن تارة اخرى. كما سيتناول تحديات ومعوقات النساء الإسلاميات للخروج الى المجال العام، والطرق والأساليب المتبعة من قبلهن، لمواجهة ممارسات الإقصاء والتهميش ضدهنّ . تسعى المقاربة الحالية في دراسة النساء الإسلاميات الى استيعاب اشكال أخرى من الفاعلية او القدرة على التصرف agency تحترم الإستقلالية الأخلاقية واشكال مواجهة سياقية مختلفة تجاه السلطة.

المقدمة

تاريخياً تباينت أوضاع النساء الشيعيات خلافاً لباقي الفئات من النساء في العراق، وتأثرت جوانب عديدة من حياتهنً نتيجة الموقف السياسي المعارض المضمر والعلني للشيعة ضد نظام البعث. ولإن النساء والرجال من الشيعة لديهم/نً التزام مباشر مع المرجع الديني – والذي على الأغلب يكون معارض او على غير وفاق مع النظام السياسي- بحكم «التقليد» فمن البديهي أن تكون هناك تبعات «سياسية» نتيجة هذا الالتزام، لكن التبعات كانت على النساء أكثر مما كانت على الرجال. سياسة القمع والاضطهاد والتهميش والعزل التي مارسها نظام البعث ضد معارضيه من الشيعة، أدت الى انسحاب النساء «الإسلاميات» الشيعيات من المجال العام. لذلك يعد موقف المرجعية الدينية الشيعية بالسماح للنساء بالدراسة داخل مدراس الحوزة العلمية بعد ٢٠٠٣ ذا دلالات مركبة بالنسبة للمرجعية الدينية وايضاً السياسية، وبالنسبة للنساء أنفسهنْ.

ان أغلب الدراسات التي تناولت النساء الإسلاميات، كانت ضمن الحركات الإسلامية الإحيائية[١]، التي ظهرت منذ بدايات القرن العشرين. لكن الحوزة العلمية عُرفت كمؤسسة دينية منذ ما يقارب من ألف سنة، وكانت مقتصرة على تعليم الرجال فقط. إذن منظور النساء الإسلاميات الشيعيات للحوزة تاريخياً يختلف عن منظور الرجال، فالرغبة بالتعلم والتزام المعنوي هو كل ما يتطلب من الرجال من أجل الالتحاق بالدراسة في الحوزات، لكن في منظور النساء ووعيهنَّ هو «حيز مقدس» ليس لهنَّ الحق بالوجود في فضائه. يفهم الشيعة الحوزة كمؤسسة تعدُّ الرجال وتُهيّئهم وتدربهم، ليكونوا فقهاء ومراجع، وسطاء بين المقدس والدنيوي، يمتلكون السلطة المرجعية Authority والنفوذ على الأفراد لأنهم يحتكرون معرفة النص الديني وتفسيره، وهي مهام اختص بها الرجال من دون النساء.

١ تعود أصول موجة حركات النهضة او الحركات الاسلامية الاحيائية المعاصرة الى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين بتأسيس جمعية الإخوان المسلمين في مصر من قبل حسن البنا وجماعة الإسلام في الهند التي أسسها أبو علاء مودودي. بعد الحرب العالمية الثانية وتكون الدول المستقلة، انكسرت هذه الحركات بسبب الإتجاهات العلمانية والإشتراكية للدول القومية. وكانت البداية في مصر، حين قام النظام بقمع الإخوان المسلمين في مصر في الخمسينيات من القرن الماضي. ولكن بحلول سبعينيات القرن الماضي، ظهر جيل جديد من الحركات النهضوية الإسلامية، يمثل امتداد للحركات التي ظهرت في الثلاثينيات. حيث ظهر في الساحة الإخوان المسلمون والجماعة في مصر، والنهضة في تونس، وجبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، والجماعة الإسلامية في باكستان وأماكن أخرى في جنوب وجنوب شرق آسيا، والحركات الشيعية في لبنان مثل حركة أمل وحزب الله. وقد ساهمت عدة عوامل في ظهور الجيل الجديد من الحركات الإسلامية الاحيائية منها: هزيمة الدول العربية في حرب عام ١٩٦٧ مع إسرائيل، والفشل الواضح للعديد من برامج التنمية، وانفجار الثورة في إيران ١٩٧٩. العقيدة الأساسية لهذه الحركات، ان خلاص المجتمعات المسلمة يكون بالعودة الى الشريعة الإسلامية المتمثلة بالقرآن والسنة وتجديد الإلتزام بالإسلام كأساس للتضامن المجتمعي والعدالة الاجتماعية والمعاملة العادلة للفقراء. دعوا الى عودة المرأة إلى أدوار الأسرة، والى إزالة الأنظمة الفاسدة وإنشاء دول «نظم» إسلامية لتكون حامية ومنفذة للأخلاق الإسلامية في المجتمعات الإسلامية. ينظر الى: الافندي، عبد الوهاب وآخرون. ٢٠٠٢. الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي. مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

تقدم المقالة وصفاً أثنوجرافياً وتحليلاً لسياق وجود النساء الإسلاميات في المجال العام، المنتظمات بالدراسة في مدارس الحوزات العلمية، للفترة من أوّل ايلول ٢٠١٥ إلى نهاية آيار ٢٠١٦. أقصد بالنساء الإسلاميات هنا النساء اللواتي يتخذنَ الإسلام هوية ومنهج للحياة، يتخلل بإدق تفاصيل الممارسات والسلوكيات اليومية. تتميز فئة النساء قيد البحث عن باقي النساء بالتزامهنّ اداء الطقوس الدينية/الثقافية[٢] التي أصبحت كنسق ثقافي يميز النساء قيد البحث، لا تتقاطع مع ممارسات وسلوكيات بقية النساء المسلمات سواء الشيعيات أو النساء من المذهب السني والنساء غير المسلمات. فالممارسات الطقسية الدينية، التي تمارسها النساء الشيعيات، تتضمن فعلاً تواصلياً تعيد إحياء المنظومة المعتقدية الخاصة بالشيعة كجماعة.[٣]

الدراسة الميدانية كانت ضمن متطلبات أطروحتي المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، اعتمدت فيها على المنهج الانثربولوجي، باستخدام الملاحظة بالمشاركة واجراء المقابلات المعمقة. مجموع المقابلات التي أجريتها مع النساء أثناء البحث الميداني كانت حوالي (٨٠) مقابلة، وقد تحددت دراستي جغرافياً بمدينتين هما بغداد والنجف. كل مدينة لديها خصائص تختلف عن الأخرى من حيث المساحة، عدد السكان والبُنى السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية والدينية. وعلى الرغم من أنَّ كل مجموعة من النساء سواء في بغداد أو النجف يشتركنَ بتقليد مرجع ديني معين، الا ان التباين والإختلاف العام بين المدينتين أثّر بشكل واضح على الحياة والأوضاع والخيارات المتاحة للنساء الإسلاميات، وطريقة تعاطيهنَّ مع تجربة الدراسة في الحوزات، وأثرت أيضاً على أشكال فاعليتهنَّ وأنماطها وطرق تشكيل الذات وإثباتها.

حاولت في دراستي تقديم مقاربة نسوية تلقي الضوء على مصادر جديدة للمعرفة والفهم من داخل واقع وخصوصية «تجربة» النساء، وموقعهنَّ داخل المجتمع. وتحليل سياقات تعاطي هؤلاء النساء مع العوائق السياسية والثقافية/الاجتماعية التي تقف ضد مصالحهنَّ واهتماماتهنَّ سواء داخل الأسرة أو في المجتمع. والاستفادة من فرصة وجودهنَّ داخل «حيز» الحوزة لتحقيق تلك المصالح. حاولت التركيز ايضاً حول السياقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة والأبعاد الخطابية التي أثرت على حيوات وخيارات النساء

---

٢ تمارس النساء الشيعيات العديد من الطقوس والعادات والتقاليد الدينية الخاصة بالطائفة الشيعية، لا تمارسها بقية النساء من غير طوائف. كالذهاب بشكل دوري إلى زيارة مراقد الأئمة، وإقامة مجالس العزاء بذكرى وفاة الأئمة. وفي الآونة الأخيرة انتشرت بشكل كبير وبخاصة في مدينة النجف مجالس قراءة القرآن وحفظه، على غرار المجالس المنتشرة في إيران. والكثير من الممارسات التي أصبحت تشكل ممارسات ثقافية/دينية بين النساء الاسلاميات الشيعيات.

٣ يفرض المذهب الجعفري على النساء الشيعيات حكم «التقليد» كما هي الحال مع الرجال، التقليد يعني الالتزام بالرجوع إلى فتاوى المرجع الديني في تطبيق الأحكام الشرعية. بالإضافة إلى المشاركة في أداء الطقوس والشعائر، تحرص النساء الإسلاميات على أداء الفروض الدينية وأحكام ما يعرف بالإسلام «بفقه النساء» من أمور العبادات والطهارة وارتداء الحجاب «الشرعي»، حيث تلتزم النساء في العراق بالحجاب تأريخياً كلباس تقليدي، وبخاصة في مدينة النجف. هناك تشابه كبير والتزام بتفاصيل شكل الحجاب عند النساء الإسلاميات الشيعيات في بغداد والنجف. يستطيع المرء أن يميز على الفور بأنها امرأة شيعية من طريقة الحجاب. وقد أزدادت ظاهرة لبس النقاب بشكل كبير بعد ٢٠٠٣، بسبب الخطاب الديني الذي أعاد إحياء هذه الظاهرة، وجعله مرتبطاً بمدى التزام المرأة بالهوية السياسية/الإسلامية الشيعية.

سواء ما قبل أو ما بعد ٢٠٠٣، باستعمال المقاربة النسوية وما تنطوي من مفاهيم السلطة والسياق والعلائقية وتحولات علاقات النوع «الجندر» باعتبارها متغيرات أساسية لتحليل قضايا المرأة والنوع في اي مكان في العالم. والكشف عن تأثير مجريات التغييرات الهيكلية والتأريخية لفكرة الدولة وتوجهات النظام السياسي القريبة من العلمانية قبل ٢٠٠٣ إلى توجهات إسلامية محافظة بعد ٢٠٠٣. وتفاعل النساء الإسلاميات مع الخطابات السياسية المعقدة المتشابكة، وكيف تتعامل النساء مع واقع يضمن حقوقهنَّ «الانسانية» مع الرجال من دون تمييز في الدستور والقوانين، شرعتٍ من قبل نظام البعث ١٩٦٨-٢٠٠٣ الذي اعتبر بمؤشرات عديدة انه نظام سياسي علماني، وأدمجت في برامج التنمية واستفادت منه بقية النساء، وواقع يفرض خطاب آخر مغاير ثقافي_قبلي/ديني محافظ، يجادل ويعارض حقوق المرأة كإنسان. الافتراض الأساسي هنا ان مطالب النساء الإسلاميات في الدراسة الحالية، لا تختلف في جوهرها أو ليست ببعيدة عن مطالب الحركة النسوية العالمية بإطارها العام بأن حقوق النساء جزء لا يتجزأ من منظومة حقوق الإنسان.

اشرت الملاحظات الميدانية التحليلية التي كانت اقل الملاحظات في بداية البحث الميداني، الى وجود تكرار لأنماط محددة من سلوكيات وتوجهات النساء الإسلاميات المنتظمات بالدراسة في مدارس الحوزات. وقد ظهرت اربع موضوعات رئيسية، اخذت نمطاً متكرراً في جميع المقابلات مع النساء، سواء في بغداد او النجف. اولها رغبة النساء بالتعليم والحصول على شهادة أكاديمية، يأتي بعدها محاولات النساء أستثمار التعليم للحصول على العمل. كما ان هناك تغيير لعلاقات وادوار النوع «الجندر» لدى النساء، وتاثيره على أعادة تشكيل ذواتهنَّ بما يتفق والأدوار الجديدة، حتى وان لم تتغيير معاييرِ الجندر داخل أسرهن أو المجتمع أو في توجهات المرجعية الدينية. لكن كان اهم تغيير وايضاً اصعب تحدي للنساء الإسلاميات هو الخروج من المجال الخاص إلى المجال العام. أهمية وتحديات النساء الإسلاميات

الشيعيات للخروج للمجال العام هو ما سوف أقوم بعرضه في المقالة الحالية. تتضمن المقالة عرض سياقي للمتغييرات التي اثرت على حيوات النساء الشيعيات، ما قبل ٢٠٠٣ وما بعد ٢٠٠٣. المقال في البداية سيقدم عرض للسياق السياسي كأحد اهم أسباب خروج النساء الاسلاميات الشيعيات الى المجال العام، وفتح أبواب الدراسة داخل الحوزات العلمية، وكيف ارتبط فهم القوى السياسية لمفهوم المجال العام بتهميش واقصاء النساء او تشجيع مشاركتهن. كما سيتناول تحديات ومعوقات النساء الإسلاميات للخروج الى المجال العام، والطرق والاساليب المتبعة من قبلهن، لمواجهة ممارسات الإقصاء والتهميش ضدهنّ.

النساء الاسلاميات الشيعيات بعد ٢٠٠٣، تجربة جديدة

أنتج تغيير النظام السياسي في العراق بعد ٢٠٠٣ بعد احتلال قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الامريكية، تحولات بنيوية ومنعطفاً مهماً في أوضاع النساء، وبشكل خاص النساء الإسلاميات من الشيعة. حيث أصبحت القوى السياسية الإسلامية الشيعية لها الباع الأول

في إمساك زمام السلطة السياسية، لأنّها باتت تحمل صفة الشرعية من منظورها العقائدي. حيث تمحور الخطاب العام حول إعادة بناء المرجعية الدينية على أسس جديدة تتماشى مع الواقع السياسي الجديد، وأخذ دورها القيادي في المجتمع. والخروج من مرحلة الإنغلاق والانكفاء والتهميش السياسي، التي عاشتها في الفترات الماضية، بسبب القمع والإستبعاد والتهميش من قبل الأنظمة السياسية التي توالت على حكم شؤون العراق وإدارته، خاصة حزب البعث، والتي أدت إلى إنسحاب النساء «الإسلاميات» الشيعيات من المجال العام. وإذا كان هناك تطور وتوسع في حوزات الرجال فإن حوزات النساء تعد سابقة في تاريخ الحوزة العلمية. فقد دعمت المرجعية الدينية الشيعية انخراط النساء في المجال العام، وفتحت المجال لأول مرة للإلتحاق بالدراسة داخل الحوزات العلمية، في مدينة النجف وبغداد وبقية المحافظات. وهو «حيز» كان حكر على الرجال منذ تأسيس الحوزة ٤٦٠هـ-١٩٦٧م.[٤] حيث انتشرت المدارس الحوزية للنساء في بغداد ومدن المحافظات الجنوبية ذات الغالبية الشيعية، تدرس فيها النساء/الطالبات أحكام الفقه للمذهب الجعفري/الاثني عشرية[٥]. بالإضافة إلى مواضيع النحو والعقائد والمنطق والفلسفة وتلاوة القرآن وفن الخطابة، تسعى هذه المدارس الحوزية إلى إعداد نساء مُبلِغات وخطيبات ومدّرسات، مهمتهنَّ التبليغ والتوعية والإرشاد ونشر التشيع في المجتمع. هذه الأدوار في المجال العام تعد سابقة لعدد كبير من النساء الإسلاميات الشيعيات، اللواتي كنّ محددات بالمجال الخاص/المنزل، بسبب سياقات سياسية ودينية وثقافية واجتماعية.

سماح المرجعية الدينية للنساء بالالتحاق بمدارس الحوزة العلمية، لم يكن يحدث لولا المتغيرات السياسية والتحولات الآيديولوجية، سواء أكانت في داخل العراق أو في منطقة الشرق الأوسط. لم يُعرف في العراق قبل ٢٠٠٣ أو إيران قبل ١٩٧٩ تدريس النساء داخل الحوزات بهذه الكثافة والتنظيم، فقد سبقت المرجعية في مدينة قم مرجعية النجف، بفتح مدارس الحوزة للنساء الإيرانيات بعد الثورة الإيرانية والإطاحة بحكم الشاه وإعلان الجمهورية الإسلامية ١٩٧٩. كان من اللافت دعم النظام السياسي الإسلامي للنساء بقيادة الإمام خميني، للمشاركة في الدراسة داخل الحوزات، حتى بلغ عدد الطالبات بعد الثورة بحدود خمسة الآف طالبة، و٣٠٠ استاذة (هاشم ٢٠٠٦، ص٦٠). قبل هذا التأريخ اقتصر

٤ تعرف الحوزة العلمية اصطلاح حديث يراد به: «المؤسسة العلمية التي تقام لغاية الدراسات العلمية الشرعية، التي تمكن الطالب من معرفة الأحكام الشرعية في مختلف مجالات حياته العلمية». وهي بمثابة كيان يعبّر عن رأي الطائفة الإمامية في مختلف شؤونها الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية. للمزيد ينظر: ال قاسم، عدنان فرحان ٢٠١٦. تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية. الجزء الأول. بيروت-لبنان، دار السلام.

٥ تسمى الشيعة بـ{الإمامية} أيضاً لأنهم يعتقدون بإمامة الإمام علي وأولاده الأحد عشر، وتسمى جعفرية لإتباعهم أحكام الفقه كما فسره سادس الأئمة جعفر بن محمد الصادق، كما تسمى الشيعة {الإثني عشرية} لانهم يعتقدون بإمامة الأئمة الإثني عشر. أثناء حضوري أحد الدروس في حوزة بغداد، احتج أحد الشيوخ في درس الفقه في إحدى حوزات بغداد على تسمية «المذهب الشيعي» وطلب من النساء/الطالبات استبدالها بالمذهب «الجعفري».

التعليم على النساء من النخب[٦] والأسر الدينية المعروفة، ولم يكن متاحاً لبقية النساء. وان كانت قد ظهرت أسماء لنساء بلغنَ درجة عالية من المعرفة الدينية، عادة ما تكون ابنة او اخت او زوجة مرجع ديني (عوض ٢٠١٣، ٢٤٧-٢٥٠)، والتدريس يكون ضمن نطاق البيت.

المجال العام والدين، الشيعة كمجموعة سياسية

لم تطبق اي من المجتمعات العربية أو المسلمة شكلاً ومفهوماً خاصاً وموحداً لدولة إسلامية، او تتبنى فلسفة مغايرة لمفهوم الدولة الحديثة في المجتمعات الغربية. ولم تخرج عن دائرة مفهوم الحداثة المرتبط مع الغرب. وعلى الرغم من الغطاء السلطوي لأنظمة الدول، مايزال المجال العام في العالم ذو الغالبية المسلمة لا يعبر عن وحدة متجانسة ومتراصة. ولا تزال حدوده ان لم تكون حتى موضوعاته تشوبها الإختلافات عن تلك الموجودة في المجتمعات الغربية. نجد هذا واضحاً في صياغة الدساتير –المنقولة بالأساس من المجتمعات الغربية- وفي القوانين المنظمة لتشكيل السلطات الثلاث القضائية والتشريعية والتنفيذية. حيث قامت بانتقاء ما يناسب إيديولوجيتها وفلسفتها الفكرية ودمجها مع قواعد وأحكام الشريعة الإسلامية. وقد مُنحت قوانين الأحوال الشخصية النصيب الأكبر من أحكام الشريعة الإسلامية. بالتالي أصبحت حدود المجال الخاص «الأسرة»، في الدول المسلمة الحديثة أكثر حدية، عزلت المجال الخاص «الأسرة» عن تدخل الدولة، عبر قوانين الأحوال الشخصية وكل ما يمس تركيبة وشكل الأسرة المسلمة. وبذلك تصبح الحدود الفاصلة بين المجالين متشابكة ومعقدة، وأحياناً ضبابية، عند نقاش الحقوق المدنية للأفراد/المواطنين، وتزداد تعقيداً إذا ناقشنا حقوق المرأة المواطنة.

يشكل نموذج نظام حزب البعث في العراق، أحد تلك الأنظمة السلطوية الشمولية. فقد جعل المجال العام أحد أدواته للهيمنة والسيطرة المادية والرمزية، وفرض رموز وايديولوجية الحزب الواحد. حيث استعملت المجالات العامة لتدعيم سلطة النظام، عن طريق وضع الصور الجدارية الكبيرة، وكتابة شعارات الحزب على جميع الأبنية الحكومية. وأصبحت جميع مؤسسات الدولة الرسمية والمؤسسات الإعلامية والساحات العامة والشوارع والحدائق، خاضعة للمراقبة والمحاسبة ضد اي نشاط «قد» يشكل معارضة للنظام.

٦ من أشهر النساء اللواتي وصلنَ إلى درجة الإجتهاد هي السيدة بانو أمين (١٩٨٢-١٨٨٦) بنت الحاج السيد محمد علي أمين أحد تجار أصفهان كانت عالمة مجتهدة معروفة واشتهر اسمها بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية في إيران. كان من أشهر أساتذتها الشيخ علي اليزدي وبالأخص آية الله السيد علي النجف آبادي. ومنح عدة فقهاء السيدة بانو أمين مرتبة الاجتهادمثل العلامة عبد الكريم الحائري مؤسس حوزة قم الحديثة والسيد أبو الحسن الأصفهاني. وتتلمذ عندها العديد من الفقهاء ومنحت بعضهم أيضاً مرتبة الاجتهاد كالعلامة الأميني وابنة أخيها (أو أختها) عفة الزمان أمين (١٩٧٧-١٩١٢) التي نالت مرتبة الاجتهاد عند السيد محمود الهاشمي الشاهرودي.ينظر: http://www.eslam.de/arab/begriffe_arab/02ba/amin_banu.htm

ارتبط فهم القوى السياسية الإسلامية الشيعية، والمرجعية الدينية أيضاً لحدود المجال العام، ومدى المشاركة، على الأقل في العقود الأخيرة، بمواقف النظم السياسية الحاكمة اتجاه الشيعة كمجموعة سياسية. فمنذ تولي حزب البعث الحكم ١٩٦٨، قام بتحجيم وتقنين والحد من الحياة والأنشطة الثقافية والدينية للشيعة، لا سيما الاحتفالات والطقوس والشعائر التي تقام في المجالات العامة. ففي ذروة التوتر بين النظام البعثي والشيعة، قام النظام عام ١٩٧٧ باستخدام المروحيات العسكرية لضرب موكب ديني خرج من مدينة النجف إلى مدينة كربلاء، بمناسبة مقتل الإمام الحسين (ذكرى عاشوراء)، يضم أكثر من ٣٠ ألف شيعي، مرددين أناشيد دينية تتخللها شعارات معارضة لنظام البعث (الصاغية، ٢٠٠٤). هذه الممارسات القمعية من قبل النظام جعلت الشيعة كهوية ومجموعة سياسية أكثر وضوحاً وتميزاً عن بقية الطوائف. تكرر مشهد القمع مرة أخرى بشكل أكثر دموية فيما باتت تعرف بالانتفاضة الشعبانية في إذار ١٩٩١، حينما أنتفضت محافظات الجنوب الشيعية على نظام صدام، بعد هزيمة وأنسحاب قوات الجيش العراقي، نتيجة إحتلال نظام صدام للكويت في آب ١٩٩٠.

ازدادت الهوة بين النظام والشيعة، بسبب سياسة التنكيل والقمع، وازدادت مساحة الإقصاء والتهميش. لكن وقع الأحداث على النساء الإسلاميات الشيعيات كان أكثر مأساوية، وأصبحت أكثر عزلة داخل المجال الخاص. وقامت العديد من العائلات الشيعية بإتخاذ تدابير العزل وتحجيم نشاطات النساء ضمن دائرة ضيقة جداً داخل العائلة، لحمايتهنَّ من تهديد وقمع النظام في المجال العام. وارتبطت العائلات الشيعية أكثر بشكبة العلاقات القرابية، بحثاً عن الأمان والحماية من سلطة النظام. هكذا وصفت مستجيبة حياتها ما تعرضت له من عزلة أثناء الإنتفاضة وتأثير سياسات النظام على وضعها الشخصي والعائلي:

«تزوجت من ابن عمي وعمري خمس عشرة سنة، اعتقلت قوات الأمن عمي الكبير في أحداث الأنتفاضة الشعبانية ١٩٩١، بتهمة معارضة النظام والمشاركة في أعمال الشغب. حدث الأعتقال اثناء عمله داخل محل في سوق النجف، حققوا مع أعمامي وكل رجال العائلة حتى أخوالي. بعد الإعتقال منعت النساء في العائلة من الخروج من البيت خوفاً من التعرض إلى الإعتقال أو المضايقات من قبل عناصر الأمن والبعثيين. عندما تزوجت لم اخرج من باب البيت لمدة سنتين، كان زوجي وبقية أخوته يقومون بشراء كل مستلزمات البيت من السوق حتى المستلزمات النسائية، من ملابس داخلية وغيرها لنساء العائلة. خرجت لمرة واحدة في زيارة سريعة وخاطفة لمراجعة الدكتورة النسائية، حتى ولادتي حدثت في البيت، عندما خرجت من البيت كنت احمل طلفتي وعمرها آنذاك كان تسعة أشهر.»[٧]

المرحلة الجديدة بعد ٢٠٠٣ أعطت مفهوماً للمجال العام يتلاءم ومتطلبات وحاجات الشيعة، كمجموعة ذات سلطة وأغلبية سياسية. نسخت القوى السياسية الشيعية الحاكمة تجربة النظام البعثي بإستعمال المجال العام في تدعيم نفوذها وسيطرتها السياسية، كردة فعل على عقود طويلة من القمع والإستبعاد. منذ الأيام الأولى لسقوط النظام ٢٠٠٣ استعملت

٧ مقابلة، موظفة متطوعة في العتبة العلوية، انهت ٦ سنوات دراسة في احدى حوزات النجف، متزوجة في بداية العقد الخامس، ٢ ايار ٢٠١٦.

القوى السياسية الشيعية، كل الوسائل المتاحة في التغلغل والهيمنة والسيطرة، والإستفادة من نفوذها السياسي بالترويج لأفكارها وأيديولوجيتها وتعبئة أنصارها ومؤيديها، وفرضت نفسها كقوة لا يستهان بها أمام بقية الكتل والأحزاب الإسلامية/السنية والعلمانية. وشجعت على وجود ومشاركة الإسلاميين (رجال ونساء) في المناصب السياسية، وجميع مؤسسات الحكومة. فعلى سبيل المثال، استبدلت صور صدام ورموز البعث، التي كانت منتشرة في الساحات العامة، بصور المراجع من الشيعة ورموز شيعية، كالأعلام واللافتات التي تحمل صور الأئمة. وبعد ان كانت الطقوس والشعائر الشيعية ممنوعة في المجال العام، أصبحت توصف بالمليونية، مشاركة النساء فيها تضاهي او تكاد تزيد عن مشاركة الرجال. وظيفة الشعائر والطقوس الشيعية هي تأكيد الإنتماء لآل البيت، وأعادة إنتاج هذا الإنتماء. تعي المرجعية تماماً أهمية مشاركة النساء في الشعائر والطقوس الشيعية، ودورهنَّ في نقل الهوية الشيعية والحفاظ عليها واستمرارها عبر التنشئة الإجتماعية والدينية للأطفال. هنا يظهر الإختلاف بين النساء الشيعيات عن باقي النساء من المذاهب السنية، في علاقتهن مع المجال العام، حيث يتميزنَ بأنهنَّ مرئيات لهنَّ حضور ووجود «علني» يفرضه الإنتماء للمذهب الشيعي.

كانت من ملامح التغيير السياسي ذو البعد الإجتماعي للمجال العام، هو انتشار الحسينيات (مصلى الشيعة) في كل مكان، وانتشرت بكثرة أيضاً مقار ومكاتب لوكلاء المراجع الشيعة، وللأحزاب والكتل السياسية الإسلامية. تزامن ذلك كله مع تشجيع المرجعية الدينية الشيعية لكل النساء للمشاركة في المجال العام، حيث شاركت النساء الإسلاميات ولأول مرة في الترشيح لعضوية البرلمان[٨]، وشاركت ايضاً في الإنتخابات لدعم الكتل والأحزاب الإسلامية الشيعية في النظام السياسي الجديد. ويأتي فتح المدارس الحوزية امام النساء، إحدى الآليات الداعمة للسيطرة في المجال العام، لتدريب النساء على مهارات التبليغ والإعلام، وهي كانت إحدى اهم مهام رجال الدين من الشيعة. حيث لم يختلف دور النساء الحوزيات عن دور رجال الدين في المشاركة والحضور في جميع مجالات المجال العام، واداء نفس المهام التبليغية منذ الشهور الأولى للتغيير السياسي. مفهوم الحوزة لدى النساء الإسلاميات لا يتحدد ببعدها الوظيفي الديني، أو ببعدها المكاني كحيز فيزياوي. تمثل الحوزة تعزيز لوجدهنَّ الذاتي، والإنتقال من البعد اللامرئي إلى العلنية، والتفاعل مع السياقات الجديدة، والخبرات المتغيرة.

٨ إن الغالبية من النساء اللواتي شاركنَ في الجمعية الوطنية التي شكلت بعد تغير النظام السياسي ٢٠٠٣، والنساء اللواتي اصبحنَ من أعضاء البرلمان لدورتي ٢٠٠٥ و٢٠١٠ كنَ من النساء الإسلاميات، بعد نجاح الأحزاب الإسلامية بالفوز بأغلبية المقاعد البرلمانية، خُصصت ربعها للنساء بحسب نظام الكوتا. حيث لم تتوانى الأحزاب السياسية الإسلامية من الإستفادة من الإنجازات والمكاسب التي حققتها الحركة النسوية «العلمانية» والتي اكدت على ضرورة اعتماد مبدأ الكوتا للنساء في البرلمان، الذي طرح بشكل رسمي كمطلب نسوي في المؤتمر الوطني الذي عقد في حزيران ٢٠٠٤، حيث تم إقرار قانون تمثيل النساء النسبي «الكوتا» عن طريق أمر سلطة الائتلاف رقم (٩٦) بتاريخ ٦/١٥ /٢٠٠٤ والمسمى (قانون الإنتخابات)، لتصبح نسبة تمثيل النساء في البرلمان العراقي ٢٥٪ في البرلمان.

المجال العام بعيداً عن المفهوم الغربي

مازال خروج المرأة من المجال الخاص/البيت يعد إشكالية وقضية خاضعة للنقاش في المجتمعات المسلمة. ترتفع الأصوات بين الحين والآخر داعية لعودة النساء إلى البيت، والالتزام بالدور الطبيعي لهنَّ، برعاية الاسرة والأطفال. تسوغ جميع تلك الدعوات بتراث إسلامي، لا يخلو من التضليل وسوء التفسير. هذا ما اكدت عليه الباحثتين هدى السعدي وأميمة أبو بكر (السعدي، أبو بكر ٢٠٠١. ٢٩-٣٢) في محاولاتهما إعادة قراءة التراث الإسلامي ودراسة أوضاع النساء المعاشة كما سجلتها كتب التأريخ، بعيداً عن التفسيرات الفقهية المُسيسة. ترى الباحثتان ان الفصل الحاد بين المجال العام والخاص ظهر في العصر الحديث مع بداية ظهور فكرة الدولة القومية الحديثة. فقد أثبت تاريخ النساء في المجتمعات المسلمة والعربية قبيل العصر الحديث، وجود مساحات واسعة من الحركة والفعالية لدى النساء في ممارسة الحقوق القانونية والشرعية في المجال العام.

عرفت فريبا خواه مفهوم المجال العام، في دراستها للنساء الإسلاميات في إيران بعد الثورة الإسلامية ١٩٧٩، على أنه المجال الذي يكون خارج نطاق الأسرة ودائرة الأقرباء، ولا يحدد المجال العام بحدود أو مساحة جغرافية، بل هو وجود يعبر عن مفهوم يرفض العزلة والإستعباد (خواه ١٩٩٥، ٢٠١). تعريف خواه هو الأقرب في اعطاء فهم للنساء الإسلاميات الشيعيات في العراق أو إيران، ويعطي صورة لفاعلية ومحاولات النساء الحثيثة في الخروج من المجال الخاص إلى المجال العام. بحسب تعريف خواه لا يمثل المجال الخاص للنساء الإسلاميات نفس الدلالات والتصورات والمقاربات الغربية باعتباره يمثل كل الفضاءات البعيدة عن الدولة. تعريف المجال العام هنا يعطي صورة اوضح حول تحديد النساء في المجال المنزلي (domestic sphere) كمجال جندري. بالإضافة إلى تضمينه الفهم الإسلامي للمجال الخاص «حدود البيت» وإرتباط النساء بالأسرة وشبكة العلاقات القرابية المحيطة بها، حيث تتحمل النساء ليس فقط مسؤولية الأسرة الصغيرة، بل تدخل ضمن واجباتها أيضاً مسؤولية الأقارب من الدرجة الثانية وحتى الثالثة. وعلاقات القرابة لها دور في تحديد خيارات ونشاطات النساء خارج نطاق الأسرة الصغيرة، لدرجة تضيع أحياناً الحدود الفاصلة بين سلطة العم والأب والأخ، أو بين الزوج وأب الزوج على المرأة ضمن العائلة. اعطت خواه فهمها الخاص/المحلي لحدود المجال العام، نابع من طبيعة المجتمع الإسلامي، وبعيداً عن المفهوم الغربي، بأنه مجال تملك الدولة والاقتصاد الرسمي للعمل المدفوع دوراً مهماً، وبأنه مجال/ساحات للخطابات العامة، تعريف خواه يعطي التجسيد الثقافي لمفهوم المجال العام.

أذن يمكن ملاحظة فاعلية النساء الإسلاميات الشيعيات عن طريق سعيهنَّ الدؤوب للخروج إلى المجال العام، ورفضهنَّ التهميش والإنعزال، حتى بوجود المسوغات والتبريرات الدينية والثقافية، عن طريق الكفاح المستمر للخروج من «حدود البيت المكانية» والمشاركة في نشاطات جديدة، خارج نطاق العلاقات الأسرية، والدخول في شبكة علاقات جديدة. وجود النساء الإسلاميات في المجال العام، يعطي دلالات مختلفة حول تغيير أدوار النوع وتحدي

النساء للتمييز والإقصاء ضد إنتمائتهنَّ المكانية داخل العالم المنزلي، بكونهنَّ كائنات جنسية، وعزلهنَّ عن المجال العام، اي المجال الديني والسياسي ومجال السلطة وتسيير امور الأمة/الدولة (مرنيسي ١٩٨٨، ١٥٢).

فاعلية النساء الإسلاميات في المجال العام بين الحكم الشرعي والواقع المعيش

خارج البيت، فضاء ممنوع عن النساء

كان للغالبية العظمى من النساء قيد البحث قصة خاصة للنضال في الخروج من المجال الخاص إلى المجال العام. في أحيان كثيرة تتشابه في تفاصيلها وتتقاطع في أسباب منع النساء من الخروج إلى المجال العام. تُعَدُّ الدراسة في الحوزة لبعض النساء التجربة الأولى في المجال العام، فهي تعطي إطار شرعي لوجودهنَّ العلني. هذا ما اكدته النساء خلال المقابلات، لا سيما النساء اللواتي تزوجنَ بسن مبكرة، وحرمنَ من التعليم وتولينَ مسؤولية دور الزوجة والأم داخل البيت، بإعتباره الوضع الطبيعي للنساء.

«تزوجت وعمري ١٥ سنة زوجي يكبرني ب ١٣ سنة، منذ أوّل يومٍ من زواجي مسح زوجي شخصيتي، كان دائم الغضب، يحاسبني على كل صغيرة وكبيرة، يصل الأمر أحياناً إلى الضرب، علاقتنا اشبه بعلاقة الضابط والجندي. منعني من الخروج من البيت، منذ أوّل ايام زواجي، كانت تمر أشهر من دون أن أرى باب البيت. خروجي من البيت مقصور على الزيارات العائلية فقط وفي المناسبات. بعد ٢٠٠٣ حدثت تغييرات كثيرة في حياتي، عرفت بأمر الحوزة من أخت زوجي، لم يقبل زوجي أوّل الأمر خروجي للدراسة في الحوزة، بعد مناقشات طويلة وافق. لكني واقعة تحت التهديد المستمر من قبل زوجي بمنعي من الذهاب إلى الحوزة، لقد فعلها عدة مرات ومنعني من الخروج، «فجأة» وبدون سابق انذار. كنت اشعر بالحرج من إدارة الحوزة، حينما اترك الدوام، لكن لا املك اي وسيلة أو طريقة ما لمواجهة الموقف، سوى الصبر على قرار زوجي. يعود الفضل باستمراري بالدراسة «لله وللعلوية المديرة» كانت تتفهم وضعي «وتتسامح» معي ولا تحسب ايام الغياب. وجودي بالحوزة هو مصدر راحة نفسية، وعالم جديد اكتشف فيه أشياء جديدة، بالإضافة إلى التفقه بالدين ومعرفة الأحكام».[٩]

٩ مقابلة في بغداد أيلول ٢٠١٥ مدَرسة في العقد الرابع، وايضا طالبة مرحلة رابعة، قبل الحوزة لديها شهادة المتوسطة التعليم الرسمي.

ضابية الإختلاف بين التصورات الجندرية التقليدية والتفسيرات الدينية

الإسناد الديني[١٠] لعدم الخروج من المجال العام لم يكن هو الطاغي في قصص النساء. فقيم الشرف والسيطرة على جنسانية المرأة والحفاظ على سمعة العائلة، كانت تحكم مسببات عدم خروج النساء من البيت/المجال الخاص. في أحيان كثيرة وعلى الرغم من محاولات النساء الدخول في مفاوضات، يُقطع عليهنَّ باب الحوار والنقاش، أو حتى فتح الموضوع من الأساس. ولا تحظى النساء بتوضيح لما عليهنَّ ان يلتزمن البيت، حتى وان كان السبب هو الخروج للدراسة في مدارس الحوزة، المؤسسة المقدسة والأهم الممثلة للمرجعية الدينية الشيعية. تأتي قصة المستجيبة من مدينة النجف كمثال تكرر في أغلب المقابلات بشكل أو بأخر، فقد مُنِعت من الإلتحاق بالحوزة، ومازالت تتسائل عن السبب، دون ان تصل إلى اجابات:

> «لم يجتمع أخوتي الخمس في يوم ما على أمر، كما اجتمعوا على أمر منعي من الالتحاق بالحوزة. حاولت مراراً ان اعرف السبب، لكن لم احصل على جواب. نصحتني أختي ان أدخل في حوار مع أخي، والذي كان اشد المعارضين لخروج من البيت والالتحاق بالحوزة. وسألته سؤال مباشر: هل ما افعله حرام؟ اجاب: لا، سألته: اذن هل هو عيب؟ أجاب: لا، فسألته اذن لماذا ترفض التحاقي بالحوزة؟ كان جوابه: هكذا! لا اريدك ان تخرجي من البيت، ولا تناقشيني أكثر. ساعدني والدي على الخروج من البيت والإلتحاق بالحوزة، لكن عندما سمع اخي الكبير بذلك، قام بضربي بشدة، وجرني من شعري من الطابق الأول إلى الطابق الأرضي، فقدت كل شعري بتلك الحادثة. أني احمد الله ان والدي مازال على قيد الحياة، وعلى الرغم من كبر سنه فهو من تولى حمايتي من أخوتي. لكن هذا لم يمنع اخي من تهديدي بالقتل إذا رأني في يوم ما في الطريق. جُنت أمي من تهديده، وقالت له: كيف تقول هذا الكلام لإختك؟! وكيف تهددها بهذه الطريقة وكأنها فعلت شيء مخل بالشرف؟!! لغاية الآن لا اعرف سبب رفض أخي التحاقي بالحوزة، طيلة حياتي أنا أنفذ ما يطلب مني.»[١١]

تشابكت النصوص والأحكام الشرعية مع ايديولوجية النوع «الجندر»، تُعامل النساء على أنهنَّ قاصرات عديمات الأهلية وبحاجة إلى وصاية وحماية الرجال داخل المجال الخاص أو العام. تنتقل الوصاية من قبل الأب عند تقدمه بالسن إلى الأبناء الذكور، في حياته وتحت أنظاره، فهو يتنازل عن بعض سلطته لأبنائه، ليضمن سيطرة الأخوة الذكور على نساء العائلة. وفي حالة زواج المرأة تنتقل الوصاية بشكل رسمي من الأب والأخوة إلى الزوج. وإذا كانت هيمنة الوصاية المفروضة على بعض النساء، تتقلص بحدود معينة بعد الزواج، فهي تُمنح مساحة نسبية من الحرية للمرأة، في إتخاذ القرارت تتيح لها خيارات متنوعة في الحياة الشخصية والعائلية. يعاني البعض الآخر من النساء، من توسع هيمنة الوصاية المفروضة، حين

١٠ ورد في الرسالة العملية للسيد السيستاني في حكم خروج المرأة من بيت زوجها، بإن الواجب على الزوجة أن لا تعصي الزوج في أمرين فقط: هما الإستمتاع الجنسي، والخروج من البيت. اما سائر الأمور فليس له أن يأمرها وينهاها وعليهما أن يحلا المشاكل فيما بينهما بالتفاهم واحترام كل وأحد منهما للآخر. http://www.sistani.org/arabic/book/16/875

١١ عدة مقابلات، موظفة متطوعة في العتبة العلوية، أنهت ست سنوات في الدراسة الحوزية في مدينة النجف، في العقد الرابع غير متزوجة، ٢٤ نيسان ٢٠١٧.

تنتقل السلطة للزوج، حيث تفرض قيود أكثر على قرارات وفرص وخيارات النساء. في أحيان كثيرة تستمر سلطة الاب والأخوة الذكور على النساء حتى في حالة الزواج والإنتقال من بيت العائلة إلى بيت الزوج. واجهت مستجيبة متزوجة من بغداد وأخرى من النجف معارضة من الأهل وليس الزوج، بعدم الخروج/الالتحاق بالحوزة:

«تزوجت بسن مبكرة، وكنت قد تركت الدراسة بعد أن اكملت مرحلة الإبتدائية، اجبرني أهلي على ترك الدراسة، لمساعدة امي في اعمال البيت، بالنسبة لهم يكفي معرفة الفتاة للقراءة والكتابة. حياتي كانت روتينة، كربة بيت وزوجة وأم، عشت مع اهل زوجي ولم أكن مرتاحة، هناك مشاكل في البيت على مدار الساعة. بعد مقتل أخي في الحرب الطائفية ٢٠٠٦ مررت بحالة نفسية صعبة، كنت دائمة البكاء. ساعدني زوجي على الإلتحاق بالحوزة لعليّ أجد متنفس فيها وتخفف عني الحزن والألم. أعترض أهلي على التحاقي بالحوزة، فمازال اهلي يسيطرون على حياتي، لم يعجبهم خروجي المتكرر من البيت. على الرغم من ان أخي شيخ معمم، لكنه رفض فكرة وجودي خارج البيت، والدراسة في الحوزة، بدأ بتحريض بقية اخوتي بالضغط على زوجي حتى يمنعني من الوصول إلى الحوزة. بصراحة انا في البداية لم أستطع استيعاب الجو العام، كنت انام في الدرس، وكان كل شيء حولي غير مألوف، تدريجياً أصبحت الدراسة الحوزية لها معنى وهدف في حياتي. اكملت مرحلة المتوسطة والإعدادية بإداء الإمتحانات الخارجية، وحالياً انا في المرحلة الثالثة في كلية الإمام الصادق. كل هذا ومازال اهلي يضغطون على زوجي حتى اترك الحوزة. تصوري انهم يستغربون كيف يدعمني زوجي اقتصادياً ويسدد عني اقساط الجامعة. اقولها لك وبكل اختصار وهذا ما خلصت له عندما عملت بحث عن المرأة والإسلام «ان المجتمع لا يطبق الإسلام، الإسلام في جانب والمجتمع في جانب أخر، المجتمع قبلي لا يحترم المرأة» هل تعلمين ان اخي الشيخ المعمم[١٢] والأخر خريج كلية إكاديمية الفنون الجميلة أجبرأني على ان اتنازل عن حصتي «الشرعية» في ورث والدي!»[١٣]

مازالت التصورات الثقافية ترفض فكرة وجود المرأة خارج نطاق الأسرة وممارسة إنشطة بعيدة عن دورها الإنجابي برعاية الأطفال وأداء الأعمال المنزلية. ولا يساعد العمر أو الطبقة أو الحالة الاجتماعية للمرأة بأن تكون متزوجة أو غير متزوجة، في الحد من سلطة العائلة وتأثير شِبكة العلاقات القرابية. هذا ما اكدته إحدى المستجيبات من مدينة النجف، على الرغم من أنّها في العقد السابع من عمرها، مازال أخوتها الأصغر منها يحاولون التحكم في حياتها:

«استغربت ردة فعل أخوتي عندما اخبرتهم بأني سوف أدرس في الحوزة، رفضوا بشكل قاطع خروجي من البيت إلى الحوزة وانا في هذا السن. عمري ثلاث وستون سنة، انا وزوجي متفقان على دراستي في الحوزة. حالياً نسكن بعيداً عن اهلي، غادرنا بغداد أثناء الحرب الطائفية ٢٠٠٥ وسكنا مدينة النجف. لكن مازال اهلي يتصلون بزوجي ويطلبون منه ان يمنعني من الذهاب إلى الحوزة، وصل الأمر إلى التهديد اللفظي. الحوزة غيرت حياتي، فيها وجدت راحتي النفسية بالإضافة إلى أني أتعلم اشياء جديدة عن الإسلام لم أكن اعرفها من قبل».[١٤]

١٢ تستعمل عادة النساء الإسلاميات مفردة «معمم» أو «شيخ معمم» أو «سيد معمم» لوصف رجال الدين.

١٣ مقابلة، طالبة في العقد الخامس، بغداد ١٩ تشرين الأول ٢٠١٥.

١٤ مقابلة، طالبة، متزوجة، في العقد السابع، النجف ٨ آذار ٢٠١٦.

لم تقتصر دائرة هيمنة العائلة وشبكة العلاقات القرابية على حركة النساء، بل تمتد إلى جهات وأطراف بعيدة عن النساء، لها تأثير غير مباشر تتحكم بخيارتهنَّ الشخصية. وتصبح مهمة حماية السمعة والشرف، مسؤولية اجتماعية تتداخل فيها أطراف عديدة، تمارس ضغط إضافي على العائلة للسيطرة على سلوك وحركة النساء. كما حدث مع هذه المستجيبة من النجف، فلم يكن زوجها أو عائلتها من أعترض على التحاقها بالحوزة، والحجة نفسها، من الأفضل التزام المرأة البيت:

«لم أواجه اي معارضة من زوجي أو عائلتي، عندما أردت الإلتحاق بالحوزة، وحين طلبت الحوزة كشرط لقبولي، ورقة تزكية من أحد الشيوخ المعممين أو رجل معروف في المنطقة التي اسكن فيها، تثبت حسن السمعة والأخلاق. لذلك طلب زوجي من أحد أصدقائه وهو شيخ معمم ان يعطيه شهادة تزكية لي. الا ان صديقه المعمم رفض، وبدلاً من إعطائه رسالة التزكية قدم له نصيحة وقال له: من الأفضل لزوجتك التزام البيت، لا داعي لخروجها من البيت لإي سبب كان، لن تنفع الحوزة زوجتك بشئ الا بالسمعة السيئة.»[١٥]

«أخترت زوج لا يقول لي (لا) تخرجي»

هذا ما صرحت به أكثر من مستجيبة، حين وصفت وضعها الحالي، وخروجها من حالة العزلة والتهميش التي كانت تعيشها قبل دخولها الحوزة، إلى المشاركة في نشاطات عامة لم تمارسها سابقاً، أو حتى خططت لها في يوم من الإيام. واستطاعت أيضاً تحقيق جانب نسبي من حقوقها الأساسية في التعليم والعمل والحضور المرئي كفاعلات في المجالات العامة. الخروج من البيت بحد ذاته يعد تحدي كبير امام بعض النساء، ولا يختلف الوضع في أحيان كثيرة في بغداد العاصمة، التي كان لها النصيب الأكبر في عملية التحديث والمدنية، عن مدينة النجف ذات الطابع الديني التقليدي.

«لم أكمل دراستي الإعدادية، ولم يشجعني أحد من اسرتي على فعل ذلك، دراسة الفتاة في زمن النظام المقبور تقريباً لا معنى لها، فالوضع العام غير آمن للنساء. توليت مسؤولية الأعمال المنزلية من طبخ وتنظيف وإدارة الأمور اليومية، الكل في البيت كان يعتمد عليّ، أخذت دور ومسؤولية والدتي في امور عديدة. البيت كان هو العالم الصغير الذي اعيش فيه، ليس لدي اي معرفة مإذا يجري خلف أبواب البيت. بعد ٢٠٠٣ تغييرت الأمور كثيراً وفتحت أبواب الحوزات للنساء، كان لدي اهتمام كبير بالعلوم الفقهية، لذلك كنت من المتفوقات في دراستي، حالياً انا ادرس سطوح عليا. أجمع العديد من الأساتذة/رجال الدين على كفاءة معرفتي الدينية وقدرتي في تدريس بقية النساء في المراحل الأولى من الحوزة. كما ترين انا ادرس الفقه للمرحلة الثالثة. لم يقف الأمر عند هذا الحد، شجعني بعض المشرفين على الحوزة لتقديم على العمل داخل العتبة العلوية، وترأس أحد اقسامها لأني املك المستوى الإخلاقي والمعرفي لإدارة القسم. وفعلاً أصبحت مسؤولة القسم منذ اربعة سنين. تغيرت حياتي مئة وثمانون درجة، لم اعد الفتاة الخجولة المنعزلة عن العالم، الحوزة غيرت شخصيتي بالكامل. اقولها لك وبكل صراحة لست مستعدة للعودة إلى ما كنت

١٥ مقابلة، طالبة في العقد الخامس، النجف ٨ آذار ٢٠١٦.

عليه سابقاً، وإذا اردت الزواج فسوف اختار زوج لا يقول لي لا تخرجي، سوف اوافق فقط على من يقبل طبيعة عملي وحياتي الجديدة، والا فلا داعي للزواج»[١٦]

قصة مستجيبة أخرى مسؤولة أيضاً في العتبة، تشبه إلى حد كبير قصة المستجيبة اعلاه من تحقيق رغبتها بالزواج ممن وافق على عملها في العتبة وخروجها من البيت بعد الزواج:

«أنا من محافظة الديوانية من عائلة ذات توجه ديني سياسي معارض، والدي كان يتردد على مدينة النجف ويلتقي بالسيد الشهيد الصدر، ومحمد باقر الحكيم. لم ينتمي والدي إلى حزب الدعوة، لكنه كان مؤيد لتوجه المرجعية السياسي آنذاك. دأبت عناصر نظام الطاغية على اقتحام بيتنا إاستمرار، بحجة التفتيش عن اي دليل يثبت تورط والدي بالمعارضة. كان عمري أربع سنوات حين توفي والدي بحادث، تولت والدتي مسؤولية تربيتنا وكانت على نفس التوجه الديني لوالدي. تركت المدرسة قبل ان أنهي دراستي الإبتدائية، السبب ان النظام المقبور جعل المدارس المتوسطة مختلطة، ونحن من عائلة محافظة لا نقبل فكرة الإختلاط. حينما بدأت الإنتفاضة الشعبأنية ١٩٩١ شارك فيها كل أخوتي والعديد من اقربائنا، وكانت والدتي تساندهم وتعد لهم الطعام. بعد ان قمع النظام المقبور الإنتفاضة اضطررنا إلى الهرب ومغادرة الديوانية والذهاب إلى محافظة أخرى. حاولنا الإختباء عن أعين عناصر الأمن، ولم نكن نظهر أنفسنا إلى مؤسسات الدولة، مثلا لم يكن لدينا بطاقة تموينية. بعد عشرة سنوات التحق خالي بالحوزة وانتقلنا معه إلى مدينة النجف. لم اخرج إلى العلن الا بعد سقوط النظام المقبور، والتحقت بالحوزة، كنت احفظ القرآن بشكل سريع، هذا ساعدني في دراستي الحوزية كثيراً، أنهيت المقدمات وجزء من السطوح. في أثناء الدراسة في الحوزة وفقني الله بأن اكون خادمة[١٧] للإمام علي، تدرجت بالعمل والنشاطات حتى أصبحت مسؤولة في العتبة. تأخرت بالزواج لأني وضعت شروط محددة لمن يرغب بالزواج مني، اولها ان يكون طالب علم، ويشجعني ان اكون طالبة علم، وأن لا يإتي يوم من الإيام يقول لي «لاتخرجي من البيت». وفعلا ببركات الحوزة وببركات القرآن الكريم جاء الشخص الذي اريد، لم يمنعني من الخروج، بل هو يشجعني على العمل.»[١٨]

مقاومة عن طريق الخضوع

تعي النساء جيداً مدى قوة وسلطة العلاقات العائلية على وجودهنَّ وسلامتهنَّ، في حدود حجم الخيارات المتاحة، والإمكانيات التي يملكنَّها. لذلك لا تدخل النساء في مواجهة مباشرة، فالخبرة المعيشة اليومية مع السلطة أكسبت النساء تقنيات وآليات، للخروج بإقل الخسائر، لطالما ان النجاح الكامل لا يكون خيار وارد في أغلب الأحيان. تواجه بعض النساء الإسلاميات تبريرات دينية صريحة ومباشرة، في تحجيم خياراتهنَّ ومسارات حياتهنَّ، لا سيما من تنتمي إلى عائلة دينية لديها توجه سياسي معارض قبل ٢٠٠٣. حيث تظهر الأحكام الشرعية من

١٦ مقابلة، موظفة في العتبة العلوية ومدرسة في الحوزة، انهت ست سنوات حوزية، غير متزوجة، في نهاية العقد الرابع، ٣ ايار ٢٠١٦.

١٧ تطلق كلمة خادم أو خادمة على كل شخص يقوم بخدمة شخص آخر لقاء مبلغ من المال، لا يتمتع الخادم عادة بمكانة اجتماعية مرموقة بسبب نوع الخدمات التي يقدمها للشخص المستفيد، والتي يعدها المجتمع وضيعة. لكن الشيعية تستعمل هذه المفردة بطريقة معاكسة للمفهوم اللغوي والإجتماعي والثقافي، فهي تعطي دلالة مختلفة، عندما يصبح الشخص خادم الإمام تكون عن طريق المشاركة في خدمة الزوار أثناء مواسم الزيارة مثلا، أو تنظيم سير الزيارات في مراقد الأئمة، وأيضاً العمل في مؤسسات العتبات. كل هذه الأعمال تعطي من يقوم بها مكانة اجتماعية مرموقة تستمد تقديرها من مكانة ومقام الإمام المعصوم ودرجة منزلته الدينية المقدسة.

١٨ مقابلة، موظفة في العتبة، في العقد الرابع، مدينة النجف ١٤ أذار ٢٠١٦.

خلال العبارات والمفردات المستعملة من قبل النساء الإسلاميات أثناء المقابلات. تستمد الأحكام قوة تأثيرها واستمرارها من الفتاوى المتجددة للمراجع، في ضرورة التزام المرأة بطاعة الزوج، وعدم الخروج من البيت إلى المجال العام الا بموافقته.

في مثل هذا السياق تظهر الأحكام الشرعية كمُحكِم سلوكي، ووسيلة لإخضاع النساء وتأكيد لإيديولوجية الفصل الجندري بين الخاص والعام. ويصبح تطبيق الأحكام الشرعية المفروض على النساء الإسلاميات، بمثابة تأكيد لحدود الشيعة وهدف لتشريفها وتكريمها كجماعة، اكثر منه تطبيق لمعتقدات دينية تسعى الى التقرب الى الله. هنا تلجأ النساء الإسلاميات إلى إستراتيجيات عديدة لقبول أو تقبل سلطة الأحكام الدينية في تبرير المنع من الخروج إلى المجال العام. في أحيان كثيرة لا تفصح النساء في الأحاديث العامة عن إمتلاكها لمعرفة فقهية وتفسيرات صديقة للمرأة، بخصوص واجباتها وحقوقها كزوجة، تفسيرات لا تعطي للزوج تلك السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الزوجة. لكن إحدى المستجيبات أعطت تفاصيل ومعلومات فقهية لا تتداولها النساء عادة في تعريف ما للزوجة المسلمة من حقوق ومالها من واجبات، كما جاءت في الفقه، حين وصفت علاقتها بزوجها، بأنها لا تمثل العلاقة الزوجية كما امر بها الفقه الجعفري. كان للمستجيبة تاريخ طويل في الدراسة الحوزية، منذ ان كانت في إيران، لأنّها تركت العراق هي وزوجها وأطفالها بعد أحداث الإنتفاضة الشعبانية ١٩٩١. حيث قامت القوات الأمنية بإعتقال زوجها بتهمة التحريض والإنقلاب ضد النظام البعثي. وهو كان بالأصل من عائلة معروفة بمعارضتها لسياسة النظام الدكتاتوري. بعد إطلاق سراحه تركوا العراق مباشرة واستقروا في إيران. بعد تغيير النظام السياسي ٢٠٠٣ عادوا إلى مدينتهم النجف، وأصبحت مسؤولة عن إحدى المؤسسات التعليمية الإسلامية:

«تحملت الكثير من زوجي وأهل زوجي، وقاومت معارضتهم من أجل دراستي، منذ ان كنا في إيران، وحتى هذه اللحظة. مازالت اخضع لمزاج زوجي والحالة النفسية التي يمر بها، فحينما يقول لي فجأة وبدون اي مقدمات: لا تخرجي إلى المؤسسة، التزم بإمره ولا أخرج وبدون نقاش. لاأستطيع الخروج عن طاعته، عليّ كزوجة طاعته بعدم الخروج من البيت، وعندما يقرر هو ويقول لي اخرجي وأذهبي إلى المؤسسة حينها أخرج من البيت. على الرغم من ان الشرع لا يعطيه تلك المساحة والسلطة بمنعي من الخروج، لطالما ان خروجي هو لهدف ديني سامي وآخروي. لست الوحيدة التي تعاني، جميع النساء تعأني من القيود الإجتماعية. ويتساوى كل الرجال في وضع تلك القيود، سواء من كان منهم «المعمم أو المثقف أو حتى صاحب الشهادة الأكاديمية العليا» الكل يقول ولا يطبق. هم يمثلون مبدأ (عرفياً لا شرعياً) على الأغلب، يحكمهم العرف لا الشرع. نراه معمم وصاحب منبر، لكن في البيت هو يطبق العرف، ويترك الشرع بشكل كامل. زوجي[١٩] دائم العصبية في البيت حتى مع الأولاد، تعلمت عدم المواجهة معه، حتى هذه اللحظة لا اقوم باي تصرف أو سلوك يجعله يشعر أنى أفضل منه. على الرغم من أنًّي درست معه نفس الإختصاص، ووصلنا إلى نفس المرحلة، الا أنى أؤخر نفسي عنه، حتى لا أشعره بالمنافسة، واواجه ردود فعل سلبية وعنيفة. على سبيل المثال عندما تنشر لي إحدى المجلات مقالة ما كتبتها، اقوم بتمثيل دور اللامبالاة

١٩ زوجها ينتمي إلى تيار إسلامي سياسي معروف.

والإستغراب، وأتعجب عندما يخبرني بأن المقال قد نشرت في المجلة. أنظر إلى المجلة وهي بين يديه واقول: لماذا نشروا المقالة هي ليست بشئ مهم، لكن في داخلي الفرح يملئ قلبي!»[٢٠]

السفر لأول مرة خارج العراق

لكن من أهم الفرص التي منحتها الحوزة لهؤلاء النساء هي فرصة السفر خارج العراق، وبدون مرافقة أفراد الإسرة، البعض منهنّ كانت تسافر لأول مرة في حياتها خارج العراق. أغلب هذه السفرات تكون لزيارة المراقد المقدسة الشيعية في إيران، وبعضها الأخر لأداء العمرة في المملكة العربية السعودية. والملفت للنظر ان أدارات الحوزات هي من قامت بإستحصال وثائق السفر لبعض النساء ممن لا يملكنَ بالأساس وثيقة سفر. تقوم أدارات الحوزات أيضاً بإستحصال الفيزا وتنظيم وترتيب بقية إجراءات السفر. تشعر النساء ان السفر خارج إطار العائلة له وقع يختلف عن السفر مع العائلة. كان هذا واضحاً لدى إحدى المستجيبات من بغداد، حين اجابت على سؤال حول أوّل سفر لها خارج العراق. اجابت وبسرعة وبدون تفكير أن أوّل سفر لها كان بعد ٢٠٠٣، مع زميلاتها الطالبات في الحوزة ٢٠٠٥ إلى إيران لزيارة المراقد المقدسة. لتعود وتستدرك بأنها قد سافرت قبل ذلك مرتين إلى الأردن برفقة أختها وابن اختها لزيارة ابنها المقيم في عمان، وأيضاً سافرت مع زوجها مرة إلى إيران، ومرة مع اختها، وسفرة أخرى مع زوجها إلى العمرة. قالت: غريب نسيت تلك السفرات! تلك السفرات لم تعني لها شيء كما كانت سفرتها مع طالبات الحوزة:

«منذ ان كنت في بيت أهلي وحتى بعد زواجي لا اخرج من البيت لوحدي، تعودت على الخروج برفقة والدتي أو زوجي. أعتاد اولادي على وجودي المستمر في البيت. بعد دخولي الحوزة تغيير كل شيء. في البداية لم يألفوا هذا الوضع الجديد، كانوا ينزعجون كثيراً عندما يعودون إلى البيت ويكون البيت فارغ «مني». لم اسافر لوحدي قبل ٢٠٠٣، سافرت مرتين إلى الأردن مع اختي وولدها لزيارة ابني المقيم في عمان. وكنت ازور مراقد الائمة في مدينة النجف وكربلاء، لكن مع عائلتي. أوّل سفر لي وحدي خارج العراق كان زيارة إلى إيران مع زميلاتي في الحوزة بعد ٢٠٠٣، لحضور محاضرات ودروس خاصة بالعلوم الحوزية وأيضاً لزيارة المراقد المقدسة. كنت في قمة السعادة والفرح، اولاً لأني أزور مكان كنت متلفهة عليه منذ سنين، وثانياً كانت سفرة رائعة مع اخواتي وزميلاتي في الحوزة، سفرة لن أنساها طيلة حياتي. بصراحة لم افتقد عائلتي كثيراُ، كأني كنت اهرب منهم، لم اصدق أني تحررت منهم لفترة، وبدأت أحب السفر.»[٢١]

المواصلات تحدي وتمكين

من أهم الأمور التي ساعدت على التحاق عشرات النساء بالحوزات سواء في بغداد أو النجف هو وجود مواصلات مجانية للنساء من البيت إلى الحوزة وبالعكس. في الوقت نفسه تُعَدُّ المواصلات من التحديات اليومية التي تواجهها النساء كآلية للوصول إلى المجال العام. ترفض

٢٠ مقابلة، مسؤولة مؤسسة دينية في العقد الخامس، مدينة النجف ١٧ ايار ٢٠١٦.

٢١ مقابلة، مدرسة، مدينة بغداد، متزوجة لديها ستة اطفال، في العقد السابع، ٢٦ تشرين الأول ٢٠١٥.

معظم العوائل المحافظة في مدينتي بغداد والنجف خروج النساء من البيت، من دون مرافقة أحد أفراد الأسرة. لذلك توفر المواصلات «المجانية» ساعد النساء على تخطي عقبات عديدة، أهمها التخلص من سلطة وشرط مرافقة أحدأفراد الأسرة، وأيضاً عبء النفقات المالية، لان أغلب النساء لا يملكنَ القدرة الاقتصادية على تغطية نفقات المواصلات. جميع أدرات الحوزات في بغداد والنجف، تدرك أهمية توفير المواصلات المجانية للنساء لغرض تشجيعهنَّ على الوصول للحوزات، وتحرص على تذليل العقبات التي من الممكن ان تعيق وصول النساء، لكن من دون ان تمس بنى الهيمنة الثقافية، أو تكون في مواجهة مع العرف والأطر الاجتماعية السائدة.

رغم ذلك تواجه النساء تحديات لا تستطيع أدرات المدارس حلها أو تجاوزها. في موضوع المواصلات، تستنفذ الإدارة والنساء/الطالبات وقتاً وجهداً ليس بالقليل، للحد من العقبات التي تعيق وصول النساء إلى الحوزة. فهناك مشكلة أوّل امرأة تصعد في الباص، ومشكلة أخر امرأة تنزل من الباص:

«لم تكن عندي مشكلة في المواصلات في السنة الأولى من التحاقي بالحوزة، لان الباص كان يُقلني من امام بيتي، ويوجد في داخله ثلاث طالبات، لم اسمع من أهلي اي اعتراض، أو اواجه اي ردة فعل من الجيران. لكن في السنة الثانية عندما تغير صاحب الخط وأماكن بقية الطالبات، أصبحت أوّل طالبة تصعد إلى الباص وفي وقت مبكر، في السادسة والنصف صباحاً. هنا بدأت المشاكل! في أوّل ايام قبلوا اهلي هذا الوضع على مضض، ولم يكونوا مرتاحين، من وجودي مع السائق لوحدنا، وأيضاً منظر السيارة الفارغة وانا اصعد فيها لوحدي يثير الريبة والتساؤلات من قبل الجيران. سكتوا على امل ان يتغير الوضع وتجد إدارة الحوزة حل أو بديل لهذا الخط. أزدادت المشكلة سوء حينما بدأ الجيران يلاحقوني بنظراتهم، وانا اصعد بالباص، لم تكتفي جارتنا بالمراقبة، فقد قامت بسؤال والدتي عن الباص ولماذا يأتي كل يوم حتى يقلني، وانا متأكدة مئة بالمئة انها تعرف انها سيارة خاصة بالحوزة. فما كان من اهلي الا ان منعوني من الذهاب إلى الحوزة إذا استمر الوضع على ما هو عليه. بعد فترة ليست بالقصيرة ساعدتني مديرة الحوزة على حل هذه المشكلة ولله الحمد، الأن الباص الذي يقلني فيه ثلاث نساء قبلي ويأتي في الساعة السابعة بدلا من السادسة والنصف!»[٢٢]

وقت ومكان انتظار أو وقوف الباص يشكل نقطة حاسمة بمواصلة واستمرار عشرات النساء للدراسة في مدارس الحوزات. بعض العوائل ترفض بشكل قاطع وقوف المرأة في الشارع من أجل انتظار الباص. أوّل واهم شرط لخروج النساء إلى الحوزة هو وجود سيارة تقلهنَّ مباشرة من البيت إلى الحوزة وبالعكس. إنتظام الباص بإوقات محددة أيضاً يشكل تحدي لبعض النساء. هذا ما لمسته في أحد الأيام عندما تأخر الباص على مجموعة من النساء، لاحظت علامات القلق واضحة على إحدى الفتيات، كانت في كل لحظة تسال متى يأتي الباص، عندما سألتها لما كل هذا القلق؟ قالت: ان أهلي يخافون عليّ. قلت لها لكن عائلتك يعرفون اين

٢٢ مقابلة، طالبة في المرحلة الثالثة، غير متزوجة في العقد الثالث، مدينة النجف، ٢٤ كانون الثاني ٢٠١٦.

انت، عندها اجابت: «بصراحة هم تعودوا على وقت محدد لرجوعي إلى البيت، إذا تأخرت حتى ولو لوقت قصير ربما سوف تحدث مشكلة، انا لا اخرج لوحدي من البيت.»[٢٣]
تبقى مشكلة خروج المرأة الإسلامية بوقت محدد من البيت، تحدي تواجهه النساء يومياً، ولا يمنع الحجاب الكامل الشرعي أو حتى لبس النقاب، أو ان تكون المرأة من عائلة دينية معروفة على مستوى مدينة النجف، من منع الأقاويل التي تمس سمعة المرأة والتشكيك بتصرفاتها. كان حال إحدى المدرسات من مدينة النجف ينم عن استهجان وغضب كبير لما تلاقيه يومياً وهي في طريقها إلى الحوزة:

«ليس لدي حصص دارسية في جميع أيام الأسبوع، فقط ثلاثة ايام، وجدول الحصص قد لا يشمل الحصة الأولى. وبسبب التزاماتي العائلية ومشاغلي لا اتقييد بالحضور في أوّل الدوام أو اكمال جميع ساعات الدوام، لذلك اقوم بإستئجار سيارة تاكسي للوصول إلى الحوزة. رغم إحتشامي والتزامي الكامل بالحجاب ولبس النقاب، لكن في كل مرة يُسمعني اصحاب المحلات في الشارع العام القريب على بيتنا، كلمات وبعض الجمل تدل على التشكيك بسلوكي الأخلاقي، عندما يتسألون عن سبب خروجي في كل يوم وفي الوقت نفسه، وماهو المكان الذي أقصده، لا اعرف ما الذي علينا فعله لتجنب هذا الكلام!!»[٢٤]

استطاعت بعض النساء الإسلاميات حل مشكلة المواصلات والإحتكاك المباشر مع الرجال في الشارع، والتعرض إلى التحرش، عن طريق قيادة سيارات خاصة. حيث اتاحت القدرة المالية لبعض النساء إمتلاك سيارة خاصة، ساعدت على حل العديد من المشاكل منها سهولة وحرية التنقل، واختصار الوقت الضائع في انتظار خطوط النقل التابعة للحوزة، والأهم الشعور بالأمان. وبعكس السيدة اعلاه، وفي نفس المدرسة كانت هناك مدرسة لا تختلف كثيراً عن زميلتها، وتضع النقاب أيضاً عندما تخرج إلى المجال العام، لكن تستعمل سيارتها الخاصة الحديثة ذات الدفع الرباعي، في تنقلاتها بين مدارس الحوزة، لأنّها تعطي دروس في أكثر من حوزة في اليوم الواحد، وأيضاً في قضاء التزاماتها العائلية أثناء تنقلها بين الحوزات، كتوصيل اطفالها إلى المدارس أو التسوق. أضيفت السيارة إلى متطلبات حجاب المرأة (غطاء الراس، العباءة، النقاب) وكشرط في بعض الأحيان لخروجها إلى المجال العام. وكانت قيادة سيارة خاصة «دفع رباعي» بالنسبة لإحدى الطالبات هو الحل الوحيد حتى تستطيع الوصول والإلتحاق بالحوزة. هكذا أجابت عن سؤالي لها أثناء المقابلة، عن العقبات والتحديات التي واجهتها للإلتحاق بالحوزة:

«رفض زوجي بشكل قاطع التحاقي بالحوزة، على الرغم من ان أختي الكبرى هي مديرة حوزة. انا من عائلة محافظة، أنتقلت بعد الزواج للعيش عند اهل زوجي وهم أيضاً عائلة محافظة، ولديهم قواعد صارمة فيما يخص سلوك النساء، خاصة الخروج من البيت. لم يقتنع زوجي بخروجي من البيت واستعمل الباص للوصول إلى الحوزة، فهو لا يتحمل فكرة الإختلاط، ووجودي مع رجل غريب في اي مكان أو تحت اي ظرف. من حسن حظي أني حصلت على مبلغ من المال، حصتي بورث والدي، والغريب ان زوجي وافق على

٢٣ مقابلة، طالبة مرحلة ثالثة، في بداية العقد الثالث، مدينة النجف ٢٧ كانون الثاني ٢٠١٦.

٢٤ مقابلة، مدرسة، في العقد الخامس متزوجة لديها أربعة اطفال، مدينة النجف ٢٣ كانون الثاني ٢٠١٦.

ان اشتري سيارة حتى أستطيع قضاء التزاماتي الشخصية ومتطلبات الأطفال. وبعد نقاشات طويلة وتدخل أختي، حصلت على موافقة زوجي للإلتحاق بالحوزة، أصبحت سيارتي الشخصية هي الوسيلة للوصول إلى الحوزة. زوجي يرى ان السيارة توفر حماية أكبر لي عندما اكون خارج المنزل، ولن اتعرض إلى التحرش، أو اكون في موقف يعرضني إلى الإختلاط مع الرجال، حتى وإن كان سائق باص.»[٢٥]

عدم وجود مواصلات مجانية قد يكون سبباً لحرمان العديد من النساء من الإلتحاق بالحوزة. وفي غياب الدعم الذي توفر الحوزات في هذا الجانب، تفقد بعض النساء فرصة الخروج من البيت والوصول إلى الحوزة. تعاني بعض الحوزات، خاصة في مدينة بغداد من غياب الدعم المالي، كما كان في السابق، والذي أدى إلى توقف توفير المواصلات المجانية. بذلك خسرت النساء اللواتي لا يملكنَ مورد اقتصادي مستقل أو دعم من قبل اسرهنَّ، فرصة الخروج من البيت والوصول إلى الحوزة:

«قرب المسافة بين البيت والحوزة كان من الأمور التي ساعدتني على الالتحاق بالدراسة في الحوزة، كنت اقطع المسافة سيراً على الأقدام. بعد زواجي أنتقلت إلى منطقة ابعد، أصبح الأمر يتطلب مني وقتاً اطول للوصول إلى الحوزة، لأنياستعمل المواصلات العامة، صحيح اقضي وقتاً اطول بالصعود والنزول من باص إلى أخر، لكنها أرخص من التاكسي. لولا زوجي ومساعدته لي في نفقات المواصلات لما استطعت الإستمرار بالحضور للحوزة. لكن لا تملك كل النساء هذه الفرصة، حيث اضطرت وللأسف الشديد، إحدى الطالبات وهي زميلة وصديقة عزيزة عليّ جداً، كانت متفوقة كثيراً في الدراسة الحوزية، إلى ترك الدراسة في الحوزة بعد ان توقفت إدارة الحوزة في السنة الماضية من توفير مواصلات مجأنية للطالبات، لان الإدارة لا تملك الدعم المالي لذلك. صديقتي لديها إعاقة جسدية، لا تستطيع الخروج من البيت لوحدها واستعمال المواصلات العامة، باص الحوزة كان يقلها من البيت ويعيدها ايضاً إلى البيت، بالإضافة إلى ذلك فهي لا تملك القدرة المالية على استئجار سيارة خاصة.»[٢٦]

٢٥ مقابلة، طالبة مرحلة ثالثة، متزوجة لديها ثلاثة اطفال في العقد الرابع، مدينة النجف، المستجيبة كانت تقود سيارة حديثة دفع رباعي. ٢٣ كانون الثاني ٢٠١٦.

٢٦ مقابلة، طالبة مرحلة رابعة، في العقد الرابع، مدينة بغداد ١٠ تشرين الأول.

خاتمة

وما بين تجاذبات الحوزة العلمية والظرف السياسي الجديد، وبين الادوار والفضاءات الجديدة للنساء الإسلاميات، اللواتي أصبحن يمتلكنَ منظوراً ورؤية جديدة عن ذواتهنَّ وحيواتهنَّ اليومية المُعاشة، وعن حيوات النساء الأخريات، تصبح التحولات الجندرية سواء كانت مقصودة أو ناتجة عن أسباب خارجة عن إرادة المجتمع أو النساء، بجعل عملية التغيير حتمية، تتخذ اشكالاً وصوراً شتى تستدعي الدراسة والبحث لفهم خبرات النساء الجديدة في حياتهنَّ العامة والخاصة، ومحاولة ربط التغييرات بالسياقات الجديدة في المرحلة الراهنة وأيضاً على المدى البعيد. من خلال اعتماد مقاربات جديدة لمفهوم الفاعلية، من حيث أن النساء تقبل، وتتكيف، وتتجاهل، وتقاوم، وتحتج، وربما كل هذه الأفعال في وقت واحد. بينت النساء اثناء المقابلات بانهنَّ يتجاوزنّ وصف الضحية القابلة للوضع أو الظروف المحيطة. ركزت المقالة على فهم الفارق البسيط وراء الدوافع المتنوعة لسلوك النساء وممارساتهنَّ، مع الخيارات المتاحة، وكشفت عن أشكال متنوعة من الفاعلية، ومدى الجهد الكبير والوقت المبذول في المفاوضات اليومية. وأداء أعمال ومهام إضافية، لتحقيق جانب من مصالحهنَّ واهتماماتهنَّ الخاصة وحقوقهنَّ الإنسانية، التي حرمنّ منها، أولها الحق بالخروج للمجال العام. عبرت آراء النساء الإسلاميات في العراق ومحاولاتهنَّ الحثيثة للخروج من المجال الخاص، عن مطالب سياسية فعلية. ظهرت عن طريق سعيهنَّ للحصول على حقوقهنَّ الإنسانية كالحق بالتعليم والحق بالعمل، والحق بالمشاركة العامة في المجال العام كذوات فاعلة، حتى وان كانت الطرق والأساليب بالمطالبة لا تشبه الطرق والأساليب التي أتبعتها النساء في المجتمعات الغربية في المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية.هنا يصبح من الضروري التأكيد على أهمية السياق التأريخي والسياسي والثقافي عند دراسة مفهوم الفاعلية agency باعتبارها نسبية ومتغيرة بحسب السياق. وليست بالضرورة تفهم كاستقلالية ذاتية autonomy وقيمة طبيعية متأصلة كما طرحته النظرية النسوية الليبرالية الغربية، بأن كل البشر يحاولون تأكيد استقلاليتهم حينما تتاح الفرصة.

المصادر

هاشم، عزة جلال. ٢٠٠٧. المشاركة السياسية للمرأة الإيرانية. دولة الإمارات العربية المتحدة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

عوض، عبد الرضا ٢٠١٣. الحوزة العلمية في الحلة، نشأتها وانكماشها، الأسباب والنتائج . بغداد: دار الفرات للثقافة والإعلام.

كرم، عزة ٢٠٠١. مترجم. نساء في مواجهة نساء، النساء والحركات الإسلامية والدولة. مصر: سطور للترجمة والطبع.

جاد، إصلاح ٢٠٠٨. نساء على تقاطع طرق: الحركات النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية. رام الله فلسطين: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية.

البزري، دلال. ١٩٩٦. أخوات الظل واليقين، إسلاميات بين الحداثة والتقليد. بيروت: دار النهار للطباعة والنشر.

الصاغية، حازم ٢٠٠٤. بعث العراق، سلطة صدام قياماً وحطاماً. بيروت: دار الساقي.

السعدي، هدى، اميمة ابوبكر ٢٠٠١. المرأة والحياة الدينية في العصور الوسطى بين الإسلام والغرب. القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة.

السيستاني، السيد علي ٢٠٠٩. منهاج الصالحين. ج١. بغداد: دار الكلمة الطيبة.

خواه، فريبا عادل. ١٩٩٥ . مترجم. ثورة تحت الحجاب (النساء الإسلاميات في إيران). القاهرة – مصر: دار العالم الثالث.

المرنيسي، فاطمة. مترجم. ما وراء الحجاب، الجنس كهندسة اجتماعية. المغرب: نشر الفنك.

Bronwyn D., 1991. *The Concept of Agency: A Feminism Poststructuralist Analysis, Social Analysis: The International Journal of Social and Cultural Practice*. http://www.jstor.org/stable/23164525